مجلة الرائد

العدد : ٢١٨ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٠ هجري ٤ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الغرب الذي نعيش فيه هل نفهمه ؟ (٣)	بقلم : أ. متولي موسى

المقومات المحددة لشخصية مجتمع ما

ستعالج هذه المقالة تعريف مقومات الشخصية ، ثم استنباط مجموعة الحقائق والقيم والموازين بالرجوع إلى الوثيقة الصحيحة الموجودة في أيدي البشر وهي التي تكفَّل الله - الخالق - بحفظها ، وثبت من خلال التحدي والواقع أنها وحي أوحاه الله عزَّ وجلَّ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ . وسيكون البحث عن تطبيق هذه المقومات على الغرب في المقال القادم إن شاء الله تعالى .

أولاً : تعريف مقومات شخصية المجتمع : سأنطلق من تعريف تمت صياغته من خلال دراستي واطلاعي في مجال الدراسات الاجتماعية هو : " تضم هذه المقومات مجموعة الحقائق والقيم والموازين التي يصدر عنها المجتمع في علاقاته مع المجتمعات الأخرى ، والتي تحدد شبكة العلاقات في المجتمع نفسه بين أفراده ومؤسساته " . ولا يمكن أن تكون هذه المقومات فاعلة إلا إذا توفرت لها الخصائص الآتية :

① أن تكون شاملة لجميع جوانب الحياة ، بحيث تتكامل الحقائق مع القيم والموازين ، حتى لا تختل شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع نفسه ، أو تختل العلاقات مع المجتمعات الأخرى .

② أن تكون هذه المقومات متناسقة مع فطرة الإنسان ، متوافقة مع أجهزة الاستقبال والتلقي عنده ، تخاطب ملكاته وطاقاته ، وباللغة التي تكون في الوسع والطاقة ، ليندفع إلى العمل الإيجابي البناء لا السلبي التجريبي .

③ أن تكون هذه المقومات ثابتة في أصلها مرنة في تنزيلها على الوقائع بحيث تضبط حركة الإنسان في المجتمع ، وتضمن سير شبكة العلاقات ، فلا يمضي الإنسان ومؤسسات المجتمع على غير هدى ، وبذلك تنضبط العلاقات ولا يحدث الانتكاس والارتكاس الخلقي والاجتماعي والانحطاط القيمي للإنسان ، وبحيث تظل حركة الحياة المتطورة محكومة بهذه المقومات .

ثانياً : ذكر أهم الحقائق والقيم والموازين :

١) الحقائق التي تقوم عليها الحياة : منها :

❶ **الغاية من خلق الإنسان** : خلق الخالق سبحانه وتعالى البشر لغاية عظيمة ولحكمة بالغة ، ذكرها في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال سبحانه : { **وما خلقت الجن**

والإنس إلا ليعبدون }**[الذاريات:٥٦]** ولتحقيق هذه الغاية أنزل الكتب وكلف الرسل ، إذ أنه لو ترك البشر وشأنهم لضلوا وانحرفوا عن طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة .

❷ **اختلاف البشر على دعوة الرسل** : منذ وقع الاختلاف في التصور بين ابنيّ آدم ، اختلف البشر على دعوة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إلى طائفتين : { **... فمنهم من آمن ومنهم من كفر ...** } [البقرة : ٢٥٣] ، وهذا الاختلاف راجع إلى تكوين الإنسان وما أودعه الباريء فيه من طاقات وإمكانات وعقل وإرادة ، قال تعالى : { **ونفس وما سواها ۞ فألهمها فجورها وتقواها ۞ قد أفلح من زكاها ۞ وقد خاب من دساها** } [الشمس] وقال عزَّ وجلَّ : { **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** } [الإنسان : ٣] ، وقال سبحانه : { **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** } [الكهف : ٢٩] .

❸ **سنة التدافع** : وتتمثل هذه السنة في أن أهل الإيمان يسعون إلى دعوة أهل الكفر إلى الإيمان ، وأن أهل الكفر لا يهدأ لهم بال إلا إذا ردّوا المؤمنين عن دينهم ، وأصبحوا مثلهم على عقيدة باطلة ، وهذه السنة هي التي تمنع فساد الأرض ، قال الله عزَّ وجلَّ : { **... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** } [البقرة : ٢٥١] وقال سبحانه : { **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون** } [النمل : ٤٥] .

❹ **الولاء والبراء** : وتظهر هذه الحقيقة واضحة جلية إذا استقرأنا التاريخ وتبين لنا أن الإنسان بطبعه يميل إلى من يشبهه في الطباع والأخلاق وقديماً قالوا : " إن الطيور على أشكالها تقع " ، وعليه فالكفار بعضهم أولياء بعض ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، ولا يتم الولاء إلا بالبراء ، وقد نقل الله تعالى لنا موقف الكفار من نبي الله شعيب - عليه الصلاة والسلام - ومن معه من المؤمنين ، فقال سبحانه : { **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين ۞ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** } [**الأعراف : ٨٨-٨٩**] .

وفي المقابل نقل الله تعالى لنا موقف إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه من قومهم فقال سبحانه : { **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون**

الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ... } [الممتحنة : ٤] .

٢) **تحديد أهم القيم** : وهي الثابتة التي تقدر بها الأمور وخاصة التي لها علاقة بالإنسان وعلاقته بالآخرين ، ونذكر منها ما يأتي :

1- **الحفاظ على الحياة ورعاية علاقات صلة الرحم** : بَيَّنَ الخالق سبحانه أن بني آدم يرجعون إلى نفس واحدة ، وبالتالي فإن هناك صلة رحم ينبغي رعايتها والحفاظ على حياة الإنسان ، قال تعالى : { **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** } [النساء :١] وقال عزَّ وجلَّ : { **وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ...** } [الفرقان : ٥٤] . وقال سبحانه : { **... وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** } [الأنفال : ٧٥]

وحرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق فقال عزَّ وجلَّ : { **... ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** } [النساء : ٢٩] وقال سبحانه : { **... من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ...** } [المائدة : ٣٢] .

2- **تسديد الفكر** : لما كان الإنسان تتنازعه نوازع عديدة فضلاً عن أنه يريد ليفجر أمامه ، كان لازماً أن يسدد له الفكر ، وإلا وقع التفلت وتحقق التناقض والتنازع ، ولا يمكن أن يسدد الفكر إلا باتباع منهج الحق : { **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض** } ؛ وعمت الفوضى وخاصة أن الإنسان يميل دائماً إلى التفلت من الضوابط التي تقيد حريته في التدمير والإفساد ، كما أخبر عنهم العليم الخبير فقال : { **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**} [البقرة : ٢٧] .

3- **ترشيد العواطف** : خلق الله تعالى الإنسان وأوجد فيه عواطف جياشة تميل به إلى حب الشهوات ، وأخبر سبحانه عن ذلك فقال : { **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** } [آل عمران : ١٤] . وهذه العواطف لها تأثيرها على العلاقات ، ولذلك لا بد لها من ترشيد وإلا تفلتت ، ولقد جاءت شريعة الله تعالى بالضوابط التي تُرَشّد هذه العواطف ،

بما يحقق التوازن للإنسان والمجتمع .

4- **تبصير الإرادة** : خلق الله تعالى الإنسان العاقل بإرادة ومشيئة تمكنه من الاختيار ، ولا يصبح الاختيار سليماً إلا إذا كانت الإرادة بصيرة في تعاملها مع الكون ، وفي الاتصال بخالق الكون والإنسان ، وكذلك وجود العلاقة السوية بين البشر بعضهم مع بعض . ولقد أرشد الخالق سبحانه إلى أن الإنسان الذي لا يستفيد من السمع والبصر في تسديد الإرادة أضل من الأنعام .

5- **إتمام مكارم الأخلاق والحفاظ عليها** : أرشد الخالق سبحانه إلى ضرورة أن تسعى التربية للسّمو بالإنسان وتكوينه ليكون أداةَ بناء وهداية ، وذلك بتربية ذوقه ، وإحياء ضميره وإتمام مكارم أخلاقه ، لتكون حياته نظيفة ، ويكون سعيه في الخير والتعاون على البر ، وهمه طرد الشر وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، ولا تكتفي التربية بالاهتمام بالأخلاق الفردية ، وإنما لا بد لها من العمل على نشر الآداب الاجتماعية الرفيعة .

وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تحديد مقياس الخير والشر ، وكيف يتحدد ، ومن الذي له الحق في ذلك ، ووجد النزاع بين أتباع الرسل والفلاسفة وعلماء الاجتماع ، فذهب اتباع الرسل إلى أن ذلك يرجع إلى الخالق العليم بخلقه والخبير بشؤونهم ، وقال سواهم : إن مقياس الخير والشر هو القانون ، فما أوجبه القانون أو أباحه فهو خير ، وما حظره فهو شر ، وعلى هذا المذهب لا يكون الإنسان مكلفاً من الخالق بفعل شيء أو ترك شيء : ولا يثاب أحد على فعل شيء ولا يعاقب على ترك شيء !!

وترتب على ذلك تحديد دور الفرد والجماعة في الحفاظ على هذه القيم إن وجدت ، وهل يطبق نظام الحسبة ، أي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم لا؟ والإسلام هو النظام الفريد الذي إذا طبق بضوابطه شعر الإنسان بكرامته ، وانتبه المجتمع إلى فضيلة عمارة الوقت بفعل الخير ودفع الشر ، ففي ذلك بقاء المجتمع نظيفاً كريماً ، قال الشاعر :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

٣) تحديد أهم الموازين : لقد وردت الموازين في الشريعة الخاتمة وأرشد الله تعالى إلى ذلك ، فقال عزَّ وجلَّ : { **والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** } [الرحمن : ٧-٩] ، وهذه الموازين عامة تطبق على الجميع دون محاباة ودون انتقاء ودون تفريق ، وسوف أذكّر هنا ببعض هذه الموازين على سبيل المثال لا الحصر :

① **العدل المطلق** : قال تعالى : { **إن الله يأمر بالعدل** } [**النحل: ٩٠**] . وقال سبحانه : { **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً** } [النساء : ٥٨] . وحدد عزَّ وجلَّ الميزان الذي يقوم عليه تطبيق العدل فقال : { **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** } [المائدة : ٨] . ثم بين جلّت حكمته وعلت قدرته عاقبة عدم تطبيق هذا الميزان ، فقال سبحانه : { **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** } [الكهف : ٥٩] .

② **تحديد المواريث** : قال تعالى : { **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** } [الأنفال : ٧٥] . أي أصحاب القرابات أحق بالميراث من الأجانب في حكم الله تعالى . وأرشد إلى التطبيق وما يترتب عليه فقال سبحانه : { **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** } [النساء : ١] . أي اتقوا قطع الأرحام والقرابات واتقوا عذاب الله تعالى . ثم بين الحكيم الخبير عاقبة مخالفة هذا الميزان فقال عزَّ من قائل : { **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم** } [محمد : ٢٢] أي يتوقع لكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تقطعوا قراباتكم وتعودوا إلى أمر الجاهلية من ترك المودة ، والتحقق بالبغي والقتال .

③ **مراقبة الله عزَّ وجلَّ** : إذا اعتقد الإنسان أن الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء ، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، مطلع عليه ناظر إليه فإنه سيحسن في كل شيء ، وهذا الذي أرشد إليه الحق سبحانه وتعالى في قوله : { **وتوكل على العزيز الرحيم ۞ الذي يراك حين تقوم ۞ وتقلبك في الساجدين ۞ إنه هو السميع العليم** } [الشعراء : ٢١٧-٢٢٠] ، وفي قوله سبحانه : { **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير** } [الحديد : ٤] .

ولقد أرشد الرسول ﷺ إلى ذلك في إجابته على سؤال جبريل عليه السلام : « فأخبرني عن الإحسان ؟. قال : **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » (جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه) .

④ **الرفق في الأمور** : جعل الإسلام ميزان الرفق في الأمور هو المنطلق ليسود الود والمحبة وحسن المعاملة ، وقُطعَ الطريق على العنف بمنع أسبابه ، فقال عزَّ وجلَّ : { **ولا تستوي الحسنة ولا**

السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ۞ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم } [فصلت : ٣٤-٣٥] ، وفَصَّل ذلك الرسول ﷺ في بيانه فقال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه » (رواه مسلم) وقال ﷺ : « من يُحْرم الرفق يُحْرم الخير كلّه » (رواه مسلم) وقال ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » (رواه مسلم) . والقِتلة - بكسر القاف - : هيئة القتل وحالته ، فإذا هجم حيوان مفترس على الإنسان من حقه أن يقتله ولكن ليس من حقه أن يعذبه ، والذِبحة - بكسر الذال - : هيئة الذبح .

⑤ **ميزان العفو عند المقدرة** : أمر الله تعالى بتطبيق هذا الميزان الذي يُشيعُ روح التسامح بين أفراد المجتمع ، بل وبين البشر جميعاً ، وما ينتج عن ذلك من حسن العلاقات ، فقال عزَّ وجلَّ : { **خُذِ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين** } [الأعراف : ١٩٩] . وقال تعالى : { **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ ...** } [النور : ٢٢] وقال تباركت أسماؤه : { **... والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** } [آل عمران : ١٣٤] ، وترجم رسول الله ﷺ ذلك بعمله وسلوكه ، فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى » (رواه مسلم) . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (متفق عليه)

تلك هي أهم مقومات شخصية مجتمع ما ، وسوف أحاول تطبيق ذلك على الغرب الذي نعيش فيه في العدد القادم بإذن الله تعالى .